تقديم أ. د. محمد عبدالمنعم البرى

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى،،،

وبعد ..

فمن الآداب الشريفة والوصايا الخالدة فى تربية النشء «داعب ابنك سبعًا وأدبه سبعًا وآخه سبعًا ثم اترك له الحَبْل على الغارب»، واستشعار الوالدين بأمانة القدوة الصالحة للأبناء وتقوى الله عز وجل من خلال ذلك يحقق البشارة القرآنية فى أوصاف عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان:٧٤] وقد سعدت بإلقاء نظرات سريعة على بحث الأستاذة الدكتورة زينب سالم، ولمحت من خلالها التوجيهات السديدة والفكر الرشيد فى ميدان التربية والرعاية للنشء مما يستوجب الدعاء بدوام التوفيق، إن ربى سميع مجيب .

أ. د/ محمد عبد المنعم البرى
عميد مركز الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر
ورئيس جبهة علماء الأزهر الشريف سابقًا

تقديم د. عصام الهلالى

من الواضح لأى راصد لمشكلات المراهق المصرى أن هناك العديد من الضغوط تحاصره وتنحر فى قواه ومستقبله وتنحر كذلك فى بنية المجتمع وصلبه قد يكون الإدمان أحد أهم هذه المشكلات، ذلك الوافد الجديد الذى يبدو أنه قد استوطن للأسف فى هذا الوطن كأنه كان يبحث عنه !! .. وقد تكون فرص التعليم والعمل بما تعنيه من أمان فى المستقبل وحماية من فقر الأيام .. قد تكون هذه كذلك أحد أهم المشكلات الضاغطة على المراهق والشاب المصرى.

لكن دون شك فإن مشكلة الهوية هى أم المشكلات خاصة وسط هذا الزخم الإعلامى والفوضى القيمية، فعندما تسود اللامعيارية وتفقد الأشياء معناها المتعارف عليه ويصبح اللامعقول هو النمط وأنصاف العارفين هم الملجأ .. هنا فإن المقدمات تدفعنا دفعًا إلى نتائج مؤلمة يمكن أن نختزلها فى البحث عن الذات والهوية والحقيقة .. ولكنه غالبًا ما يكون بحثًا عاجزاً ضعيفًا ، إفراز مجتمع يئن تحت ضربات الاختراق الثقافى التى تصر أن تحوله إلى مسخ خرافى يرقص فى خلاعة ويغنى بلا معنى .. ويعانى من فراغ الضمير والنفس والوقت بما يحمله من ملهاة البحث عن الذات فى الابتذال.

هذا المسخ الخرافى هو نفسه الذى يتشح بالسواد ويغوص ويغوص فى ملهاة التشدد والتعصب الدينى لعله يجد ذاته المفقودة ... إن كلا الطرفين مؤلم وفاشل، الأول منسحب مغيب والذى يفرض الانسحاب على المجتمع ويقف وحيداً.

عندما نراجع الإحصاءات الخاصة بعدد الشباب والمراهقين المتطرفين دينيًا والمُعَرَّضين كذلك للتطرف سوف نشعر بالألم .. عندما نراجع توزيع هؤلاء الشباب الجغرافى والعمرى سوف نشعر بالخوف .. ولكننا عندما نراجع أدوارنا ومسئوليتنا واستراتيجيات مواجهة هذا الفكر المشوش، وأساليب تأمين أولادنا قبل محاسبتهم سوف نشعر بالتقصير!

إن مثل هذه المداخل هى - غالبًا - ما دفعت الباحثة المؤلفة الدكتورة زينب سالم أن توظف خبراتها فى التعامل مع المراهق المصرى على مدار سنوات طويلة ومعايشتها له ولمشاكله وآلامه وطموحاته وأحلامه .. لقد وظفت هذه الخبرة الميدانية فى بنية علمية رصينة لخدمة قضية محورية وهى التطرف الدينى وميزت بينه وبين التعصب ، ثم عرضت متى يصبح التطرف إرهابًا وما هى أنواع التطرف ودوافعه ومحدداته والنظريات المفسرة له وموقف الدين الإسلامى منه. ثم تناولت فى الفصل الثانى بدراسة مستفيضة ماهية المراهق والنظريات المفسرة لمرحلة المراهقة وخصائص وسمات المراهقة، ثم ناقشت مطالب وحاجات المراهق وميولهم ومشكلاتهم فى أطرها النفسية والاجتماعية المختلفة، مستعرضة الجماعات الأولية والثانوية والمرجعية المؤثرة عليه، وأخيراً تستعرض الأدوار الإيجابية لحمايته من التطرف الدينى ودعم السلوك الإيجابى السوى.

من هنا اكتسب هذا الكتاب أهميته العلمية والمجتمعية .. ليس لكونه رصداً لمشكلات التطرف الدينى لدى المراهق فقط، أو لأنه تشريح للبنية السيكولوچية له .. وإنما القيمة الحقيقية لهذا المؤلف تنبع من أنه يضعنا أمام الحقيقة كما هى وينبهنا إلى مسئولياتنا التى قد تكون غابت عنا كأولياء أمور أو مربين أو مثقفين، ثم يأخذ بيدنا فى هدوء عميق إلى أنماط الفعل التربوى التى يجب أن نتبناها فى التعامل مع هذه الشريحة.. وأشكال الفعل السالب التى يجب أن نكون على وعى كامل بأنها سوف تفرز شخصية دوجماتية متطرفة.

إن هذا الكتاب ليس فى سوسيولوچية التطرف الدينى أو فى سيكولوچية المراهق المتطرف .. ولكنه فى المقام الأول دليل تربوى للكبار لعلنا نقف يومًا أمام ضمائرنا ونقول لقد حاولنا وتعلمنا كيف نعمل وكيف نربى وكيف نواجه ولقد نجحنا .. بدلاً من أن نلقى اللوم على الآخرين ونتنصل من مسئولياتنا ونختبئ وراء نظرية المؤامرة.

د. عصام الهلالى

مستشار وزير الشباب والرياضة سابقًا

« تمهيد »

لقد فرض واقع المجتمع المعاصر على الإنسان تغييرات حادة وسريعة وعديدة، قد تتجاوز إمكاناته على الاستجابة لهذه المتغيرات المتلاحقة وعلى التكيف معها واستيعابها، وإزاء هذا التغيير الصادم قد يعانى الإنسان حالة من اختلال التوازن الذى يعبر عنه «إلڤين توفلر» بصدمة المستقبل، وذلك لأن جوهر الصدمة هو أن تغييرات حادة ومفاجئة ومتلاحقة قد أحاطت بالإنسان فعجزت أجهزة التكيف والتلاؤم فى بنائه العضوى أو النفسى عن ملاحقتها والاستجابة لها.

فالعالم اليوم يمر بتغيرات سريعة أصبحت سمة العصر وانتقلت آثار هذا التغير من الحياة التكنولوچية إلى الحياة الاجتماعية « Social Life » فتأثرت القيم والعادات والتقاليد والمعايير، واضطر الإنسان إلى التعامل مع التنافس والتصارع والقلق والتوتر والخوف فاستجد بذلك عدداً من المصطلحات التى تسهم فى وصف ما يمر به من توتر واضطرابات.

ورغم أن عصرنا الحاضر وهو عصر الثورة العلمية والتكنولوچية قد توفرت فيه منجزات عظيمة إلا أنها تحمل فى طياتها أيضًا الكثير من الآلام والمتاعب النفسية والكثير من مقومات التدمير والتخريب، وبالتالى الكثير من الشقاء الإنسانى، وليست الأوضاع الراهنة للشباب وما تنطوى عليه من مظاهر غير سوية إلا انعكاسًا للأوضاع والظروف والمتناقضات الموجودة فى هذا العصر.

ولعل الصورة القاتمة تعبر عن الكثير من واقع الشباب فى هذا العصر فى مجتمعات متعددة، ولعل أبرز مظاهر التعبير عن اغتراب الإنسان ما تفصح عنه الإحصاءات والدراسات الاجتماعية عن زيادة ملحوظة خطيرة فى انتشار الأمراض النفسية والعقلية وحالات الانتحار المتكررة وإدمان المخدرات، وأخيراً ثورات الرفض والتمرد والاحتجاج التى يقوم بها الشباب فى بلدان كثيرة من العالم.

وظاهرة التطرف الدينى، من الظواهر التى احتلت الصدارة فى كثير من الأعمال السوسيولوچية والسيكولوچية، التى سعت لوصف اضطرابات الإنسان المعاصر، والتى فرضت نفسها على الساحة العالمية وامتدت براثنها إلى داخل مجتمعاتنا العربية، ويؤكد الباحثون على أن ظاهرة التطرف الدينى ليست وليدة عصر التكنولوچيا - بل هى قديمة قدم الإنسان- ولكنها سادت لتخرج من نطاق الحالات الفردية لتصبح إحدى الظواهر الاجتماعية المميزة للعصر الحالى مع اختلاف المجتمعات، فكلما تعقدت الحياة افتقد الإنسان - وبصفة خاصة المراهقون والشباب - الانتماء إلى الواقع وما يحويه من أفراد وتراث وعقائد وقيم وقانون وروحانيات، وأدى ذلك إلى تقلص الذات التى تصبح عاجزة عن تحقيق نفسها فتنشأ مظاهر سوء توافقها وعدم تكيفها.

والتطرف ظاهرة اجتماعية لا يكاد يخلو منها مجتمع من المجتمعات سواء أكان هذا المجتمع ينتمى إلى العالم المتحضر أم إلى العالم المتخلف، ولذا فإن الحكم على التطرف بأنه ظاهرة مرضية أو مشكلة يعيشها المجتمع وينبغى التخلص منها، ليس بالأمر العلمى الموضوعى، فهو ظاهرة لها مسبباتها ولها عواملها التى أدت إلى ظهورها، ولها مقوماتها التى أدت إلى استمرار بقائها ومن ثم فإن التطرف في مجتمع من المجتمعات ينبغى النظر إليه أولاً على أنه نتيجة وليس سببًا.

ولا يعتبر التطرف ظاهرة اجتماعية إذا ما اقتصر أمره على فرد أو على أفراد محددين، فالتطرف ليس له أهمية كبيرة من وجهة نظر المجتمع إذا كان لا يتعدى السلوك الفردى ولا يؤيده تطرف جماعى، ولكنه يصبح ظاهرة تشغل بال المجتمع إذا اتجهت إلى التطرف الدينى أو السياسى جماعات عديدة لا سيما إذا اتجه بعضها إلى العنف لإحداث التغيير الاجتماعى «Social Change» أو التغيير السياسى وتزداد أهمية وضعه فى الاعتبار، إذا نما إلى الحد الذى يضع صاحبه فى موقف بطولى أمام فئة كبيرة من المجتمع، ويجعله يمثل قوة اجتماعية قادرة على التأثير على الآخرين وتوجيههم، حيث يبلغ التطرف هنا مرحلة يهدد فيها أمن المجتمع.

ومن هذا الإطار نؤكد على أن التطرف الدينى إذا لم يتجاوز حدود التفكير والشعور واقتصر على العبادة وإقامة شعائر الدين والتشديد على النفس، فهو أمر مقبول ومرضى عنه ولكن عندما يتحول إلى سلوك جماعى منظم ينطوى على تحدى السلطة القائمة فى المجتمع، ومحاولة فرض الرأى ولو عن طريق استخدام العنف فإنه يدخل فى نطاق التطرف الدينى السياسى ويصبح ظاهرة تشغل بال المجتمع وتهدد أمنه.

والتطرف الدينى - كما سبق وأن أشرنا - ظاهرة عالمية منتشرة فى أرجاء دول العالم المعاصر، لكن هذا الانتشار لا يرجع بالطبع إلى أن التطرف الدينى جزء من الطبيعة الإنسانية أو أنه ظاهرة إنسانية مجردة، وإنما ينبغى دراسة ظاهرة التطرف الدينى فى ضوء العوامل الموضوعية التى توجد فى النظام الاجتماعى الاقتصادى السياسى المعين فتلك الظاهرة هى شكل من أشكال السلوك الإنسانى، فلا بد وأن يكون وراءها دوافع وعوامل «دينية - نفسية - اجتماعية - اقتصادية - سياسية - تربوية - إعلامية - أمنية - دولية، ... إلخ»، وذلك انطلاقًا من مسلمة من مسلمات علم النفس تقول: وراء كل سلوك دافع.

ومن ثم، جاءت فكرة هذا الكتاب فى هذا الوقت الراهن بالذات الملىء بالمتغيرات على كافة الأصعدة، هذا الكتاب الذى نحاول من خلاله تناول ظاهرة التطرف الدينى بالبحث والدراسة فى ضوء خطوات المنهج العلمى بهدف الوقوف على الأسباب والدوافع الكامنة وراءها، وذلك بغرض الإعداد الجيد لكيفية مواجهتها والقضاء عليها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أننى سوف أتناول تلك الظاهرة «التطرف الدينى»، من خلال إحدى شرائح المجتمع المصرى المهمة وهى شريحة المراهقين والمراهقات فى المرحلة العمرية من (١٤-١٧) سنة، وذلك لعدة أسباب تتمثل فى الآتى:

١ - تتميز مرحلة المراهقة بثورة المراهق وتمرده على سلطة الأسرة والمدرسة وقيودهما واحتدام الصراع بينهما ويرجع حدوث هذا الصراع إلى رغبة

المراهق فى الاستقلال عن الأسرة، وميله إلى الاعتماد على النفس، نتيجة للتغيرات الجسيمة التى تطرأ على المراهق، ويشعر بأنه لم يعد طفلاً قاصراً كما أنه لا يحب أن يحاسب على كل صغيرة وكبيرة أو أن يخضع سلوكه لرقابة الأسرة ووصايتها فهو لا يحب أن يعامل كطفل، ولكن تود الأسرة أن تمارس رقابتها وإشرافها عليه بهدف توفير الحماية ولكنه لا يقر سياسة الأوامر والنواهى.

٢ - يعيد المراهق حساباته من جديد فى كل شىء ويناقش ويزن بعقله شاعراً بأن المحيطين به لا يقدرون موقفه ولا يحسون بإحساسه ولا يجارونه فى آماله فيضطر إلى الثورة والتمرد والعناد، وانفعالات المراهق فى النهاية تتميز بالسطحية وعدم النضج إذ تسهل استثارته، يساعده فى ذلك أنه أحيانًا ما يعتنق مذهبًا ما يجعله شديد التمرد أو يحيا فى تناقضات بين محاولة المشاركة الاجتماعية والانعزال، بل وقد يعتنق أحيانًا فكرتين متعارضتين معًا فينعكس هذا بدوره إلى نمو اجتماعى غير سليم.

٣ - المظهر الانفعالى الدينى فى مرحلة المراهقة يبدو واضحًا إذ تنتاب المراهق ثورة من الشك والصراع الدينى، فهو يميل بعقله النامى لمناقشة وتحليل وفهم الأمور والقيم الدينية فهمًا منطقيًا.

٤ - أن المظهر الانفعالى الدينى يكمن فيما يحيط بالإيمان من مشاعر وعواطف فالفرد يؤمن فى طفولته بالشعائر والطقوس الدينية المختلفة لكن فى مراهقته يتخفف كثيراً من هذا الإيمان ويتجه بعقله نحو مناقشتها وفهمها، ولهذا قد ينحدر به الشك إلى الصراع، فالشعور الدينى فى المراهقة يعد أقوى العوامل التى تعمل على تغيير مثيرات واستجابات المراهق الانفعالية.

٥ - يتعرض بعض المراهقين لحالات من اليأس والقنوط والحزن والآلام النفسية نتيجة لما يلاقونه من إحباط، وللدين دور مهم من الناحية النفسية فهو ملاذ عظيم ومنفذ لكثير من المشكلات الانفعالية والصدمات النفسية،

والدين بما يحمل من أفكار وقيم يعالج الكثير من المشكلات التى يقع فيها الفرد ويعمل الدين على تخفيف القلق النفسى وله صلة كبيرة بالنمو العام وبالناحية الجنسية عند المراهقين وهناك ارتباط وثيق بين الناحية الدينية والناحية الجنسية، فتتخذ الناحية الدينية وسيلة لإعلاء النزعات الغريزية الجنسية، لأن المراهقين لديهم طاقات قوية نشأت من النمو الجسمى والنفسى وهنا يبرز دور الدين وأهميته فى إعلاء هذه النزعات وحسن توجيه هذه الطاقات.

٦ - أهم وأخطر صراع يتعرض له المراهق هو «الصراع الدينى» فهو يرغب فى تفهم الأمور الدينية وما يوافق أوامر الشرع ويشعر أن رغباته لا يوافق عليها الشرع، فالشعور الدينى لدى المراهق متذبذب، فهو تارة يزيد من التدين وتارة أخرى يبعد عنه ولعل ذلك يرجع إلى تلك الصورة من الصراع بين رغباته وما يوافق عليه الشرع.

٧ - تمتاز مرحلة المراهقة بأنها سن العقيدة، وسن الحاجة إلى صون هذه العقيدة وتوكيدها وإن عصف بها الشك أحيانًا، وتدل أبحاث كول «Cole» على أن السنة السادسة عشرة من حياة المراهق تعد مرحلة تحول فى سلوكه الدينى حيث يقرب الفرد اقترابًا واضحًا من معايير دينية حتى يرشد وتثبت أغلب مظاهر تدينه ثبوتًا يستطرد معه بعد ذلك طول حياته.

٨- تتصف مرحلة المراهقة بالشكوك التى تعترى المراهق بخصوص القضايا الدينية، فالمفاهيم والمدركات والمعتقدات والعبادات التى كان يمارسها الطفل من قبل تخضع فى هذه الفترة لتقويم دقيق ومحاولة لإدراك مفهومها ومعناها وذلك تبعًا لنوع التفكير المنطقى والمعانى المجردة الجديدة التى تسيطر على تفكير المراهق فى هذه الفترة، وقد يتراوح الشك لديه بين النقد العابر والارتياب الحاد فى كل العقائد .

وقد قسم علماء النفس المصريون المراهقين إلى أربع فئات وهى :

الفئة الأولى ملتزمة بقواعد الدين:

ولا يناقشون أموره وهم أصحاب الإيمان التقليدى وهم يرضون بما اكتسبوه من قيم دينية، وهؤلاء من النوع المتطابق مع قيم المجتمع واتجاهاته بشكل عام ويمرون بمراهقة هادئة متوافقة .

الفئة الثانية وهم أصحاب الحماس الدينى:

الذين يناقشون الدين بإيجابية ويتمنون سيادة التعاليم الدينية فى المجتمع، حتى ينصلح حاله ومنهم ذو حماس إيجابى لا يتعصب صاحبه ولا ينطوى، بل يكون منبسطًا ناضجًا يواجه المجتمع بأساليب إيجابية، ومنهم ذو حماس سلبى وصاحبه بحكم تكوينه النفسى يفشل فى الخروج إلى المجتمع ليعبر عن حماسه الدينى، فينصرف عن الدنيا ويتفادى العلاقات الاجتماعية، وهذا يكون عند الشخصية الانطوائية وهى شخصية لا سوية تعجز عن مواجهة الواقع فتنكره.

الفئة الثالثة وهم أصحاب الشك فى الدين:

واتجاهها نقدى فهم يناقشون الدين مناقشة جدية ولا يقرون قواعده إقراراً تامًا، وفى نفس الوقت لا ينكرونه إنكاراً تامًا فهم يقرون الدين بعين التشكك.

الفئة الرابعة وهم الملحدون:

المنكرون لله عز وجل، إنكاراً صريحًا ومبعث هذا الإلحاد الرغبة العنيفة فى التحرر والاستقلال مع توجيه العدوان الداخلى إلى المجتمع بمهاجمة مقدساته ومصدر هذا الإلحاد عوامل منها: قسوة الأسرة على الطفل وشعوره بالمذلة والمهانة، وانعدام المثل العليا وتفسخ المبادئ لدى الكبار، واستبداد وسيطرة القيم العلمية البحتة والاتجاهات الفلسفية.

وإننى آمل أن يساهم هذا الكتاب فى اقتراح توصيات قد تساهم من الناحية النظرية فى إجراء أبحاث ودراسات ومؤلفات أخرى، ومن الناحية التطبيقية فى إعداد برامج أو وضع سياسات وقائية تجنب النشء الصاعد من المراهقين والمراهقات الوقوع فى دائرة التطرف الدينى.

وأخيراً، أدعو الخالق القدير «الله عز وجل» أن يوفقنى إلى تحقيق أهدافى من هذا الكتاب، وهو نعم الموفق ونعم النصير.

الدكتورة/ زينب سالم